

المشجرة وعصافيرها

كانت شقتى تطل من الخلف

على فيلا من المطراز القديم

وأمامها فناء واسع

تتوسطه شجرة معمّرة

كان يقال إنها ترجع لأكثر من مائة عام

المهم أن أوراقها الخضراء لم تكن تجف ،

طوال الفصول الأربعة

وكان يسكن في هذه المشجرة

حشد هائل من العصافير

التي تظل تزقزق على مدى ساعة كاملة ،

في الصباح الباكر.

وأذكر أن أصواتها المزعقة

كانت تزعجني جداً

وتقلق راحتي تماماً

في ذلك الوقت الذي يسبق نهوضي من السرير

واستعدادي للذهاب إلى العمل .

* □ *

لكنني من مرور الوقت

الذي يَـضطرنا في العادة إلى التّأقلم

صرت أتحمل أصوات تلك العصافير

بل إننى رحت أحاول

أن أجد فى أصواتها المتناثرة والمتضادة

خيطا من الانسجام والوحدة

وقد لاحظت أنها لا تبدأ عزفها مرة واحدة

وإنما بصوت واحد أو اثنين

ثم تتبعها باقى الأصوات الأخرى

حتى تكتمل الجوقة كلها فى لحن متكامل .

* □ *

وبعد مرور حوالى الساعة

تنطلق هذه الفرقة المغردة

فى رحلتها الصباحية

لتلتقط رزقها من حقول المجيزة

المحيطة بنهر النيل

ثم لما تعود إلما مع غروب الشمس

حيث تسكن تماماً داخل المشجرة

ولما يصدر منها أى صوت طوال الليل ..

* [] *

صارت معزوفة العصافير الصباحية

جزءاً لما يتجزأ من نظام حياتى اليومية

أتابعها برضا

وأصحو على أصواتها بنشاط

وأسكن معها فى الليل بهدوء كامل

ومن الغريب أنني لم أكن أتبين أجسامها

بين الأخصان أبداً

فهي تسكنها ، لكنها لا تظهر نفسها منها

فقط : أصواتها الطويلة والمقصيرة والمتقطعة

هي التي أسمعها ..

* □ *

و ذات يوم

فاجأني القدر بما لم يكن في الحساب

أصوات عمال تتنادى

وزمجرة بلدوزارات تعلو وتهبط

وسألت .. فعلمت

أن أصحاب الفيلا المجاورة قد باعوها

وأن المشتري سيبنى مكانها برجاً سكنياً

وبالمطبع كان عليهم أن يزيلوا المشجرة العتيقة

وقفت في نافذتي مشدوها

وكان أهم ما فكرت فيه

هو حال تلك العصافير

حين تعود مع غروب الشمس

فلا تجد شجرتها التي توأدت ،

وتكاثرت ،

وعاشت كل حياتها فيها !

* □ *

راح البرج السكنى يعلو ويعلو ..

حتى حجب عن نافذتي الصغيرة

كلا من السماء والشمس والقمر

وقد انعكس ذلك على حالتي النفسية

فصرت أكثر كآبة

واضطربت مواعيد نومي ويقظتي

وران المكسل والخمول على حركتي

وفى أحد الأيام

فوجدت بعصفور يحط على حافة النافذة

فرحت به كثيراً

وأسرعت نحوه مرحباً

لكنه أسرع بالطيران

ألقيت نفسي على أقرب مقعد

ورحت أتساءل :

ماذا كان يفعل ؟

ولماذا جاء ؟

وأين باقى إخوته ؟

هل وجدوا شجرة أخرى ؟

أم أنهم تفرقوا فى أشجار مختلفة ؟

وهل مازالوا يزقزقون ؟

أم أنهم سكتوا عن العزف ؟
